طيف الخيال في شعر البُحتريّ وابن زيدون
(دراسة مقارنة)

ريمة عثمان* جهاد رضا، سيرين سيرجيّة****

*طالبة دراسات عليا (دكتوراة)، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب.

** قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب.

الملخّص

يحاول البحث تتبّع ظاهرة طيف الخيال في شعر البُحتريّ (284هـ) وابن زيدون (463هـ)، ومعرفة البواعث التي استدعت ظهورها، وهي ظاهرة إبداعيّة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعلاقة الإنسان العاشق بالمرأة المحبوبة.

فقد مُنيَ الشاعران بشتّى ألوان الفقْد والفراق، وتعرّضا للعديد من المِحَن، كالتشرّد في البلاد، والنأي عن الأهل، وفراق الأحبّة، لمَا ساد في العصر العبّاسيّ من ثورات وتناقضات تشابهت مع مثيلها في العصر الأندلسيّ الذي كان يمور بصراعات الطوائف وفتن الإمارات، ممّا جعل حياة الشاعرَين تتّسم بعدم الاستقرار، وبالقلق الدائم من المصير المجهول. بيد أنّ الذات الشاعرية التي عانت شتّى أنواع الاضطراب؛ النفسيّ والاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ في الواقع، لم تقبع مستكينَة لواقعها المأسويّ، بل خاضت صراعًا مريرًا معه من أجل البقاء والاستمرار، وحاولت تجاوزه من خلال خلق عالم شعريّ جديد لها، تعود الذات من خلاله إلى زمنها الجميل وذكرياتها فيه، ليُسليها عن مأساتها، وهذا ما سيتّضح في دراسة تجليّات طيف الخيال في شعرهما بنوعيه؛ طيف الخيال المُتمنّى وقوعه، وطيف الخيال المُستحضَر.

الكلمات المفتاحية: طيف، الخيال، شعر، البُحتريّ، ابن زيدون.

ورد البحث للمجلة بتاريخ ا 5/ 10/2020م

قُبل للنشر بتاريخ ا 24 / 12 /2020م

مقدّمة:

لا بدّ من الولوج إلى بحر معاجم اللغة العربيّة لمعرفة المعنى اللّغوي لكلمتي (الطيف والخيال)، ونبدأ بالخيال بوصفه موطن صورة الطيف، كما رأى أحد الباحثين بأنّ «الطيف كان صورة مرئيّة أو شبه مرئيّة لما يدور في خيال البدائيّ. وإذا كان الخيال عمليّة عقليّة فهو قد أخذ شكلًا ماديًّا [يتراءى] شبحًا أو طيفًا أو حتى خيالًا»[1].

فقد جاء في لسان العرب أنّ الخيال: «خيال الطائر يرتفع في السماء، فينظر إلى ظِلّ نفسه فيرى أنّه صيد فينقضّ عليه ولا يجد شيئًا، وهو خاطف ظلّه... وتخيّل الشيء له: تشبّه، والخيال والخيالة: ما تشبّه لك في اليقظة والحلم من صورة، والخيال والخيالة: الشخص والطّيف، والخيال لكلّ شيء تراه كالظلّ، وكذلك خيال الإنسان في المرآة، وخياله في المنام صورة تمثاله، وربّما مرّ بك الشيء يشبه الظلّ فهو الخيال»[2]. وفي مقاييس اللغة: «خيل: الخاء والياء واللام أصلٌ واحد يدلُّ على حركةٍ في تلوُّن، فمن ذلك الخيال، وهو الشَّخص. وأصله ما يتخيَّلُه الإنسان في مَنامه، لأنّه يتشبّه ويتلوّن»[3]. أمّا كلمة (الطيف) فيقول ابن منظور: «طاف به الخيال طوفًا: ألمَّ به في النوم، والطيف في كلام العرب: الجنون، والطّيف: المسّ من الشيطان، وأصل الطيف: الجنون ثم استُعمل في الغضب ومسّ الشيطان، والطِّيف: الخيال نفسه، ويقال: طاف يطيف طيفًا وطوفًا، فهو طائف، ثمّ سُمّي بالمصدر؛ ومنه طيف الخيال الذي يراه النائم»[4]. وقال صاحب التاج: «الطيف: الخيال: الطائف في المنام، يقال: طيف الخيال وطائف الخيال. وطيف الخيال: مَجِيئُه في النوم»[5].

---

[1] – عز الدّين، د.حسن البنا: الطيف والخيال في الشعر العربي القديم، ط1، دار النديم للنشر والتوزيع والصحافة، القاهرة، 1988، ص: 9.

[2] – ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت، مادّة (خيل): 230/11.

[3] – ابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السّلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979، مادة (خيل): 235/2.

[4] – لسان العرب، مادّة (طوف) و(طيف): 225/9–228.

[5] – الزبيديّ، السيّد محمّد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد الفتّاح الحلو، مطبعة حكومة الكويت، 1986، مادّة (طيف)، 109/23–110.

ومن «الدلالة اللغويّة للطّيف والخيال أُخذ (طيف الخيال) الذي يتعلّق بالمحبوبة»[1]، وهذا ما يتّفق، اصطلاحًا، وما ذهب إليه الشريف المرتضى في تعريفه لـ(طيف الخيال) بقوله: هو «زيارة من غير وعد يخشى مَطْلُه، ويخاف لَيُّهُ وفوته. واللذّة التي لم تحتسب ولم ترتقب، يتضاعف بها الالتذاذ والاستمتاع، وأنّه وصْلٌ من قاطع، وزيارة من هاجر، وعطاء من مانع، وبذل من ضنين، وجود من بخيل»[2]. كما وضّح الدكتور حسن البنا العلاقة بين الطيف والخيال في الشِّعر إذ قرّب معنى الخيال المرتبط بالطيف في الشعر من معنى ملكة الخيال التي من خلالها يتصوّر المرء الأشياء ويتذكّرها ويستدعيها في نومه ويقظته[3]، وهكذا «يكون الطيف تكأة تُستدعى أو مادّة مثيرة للتخيّل أو صورة خياليّة أو واقعيّة، تحضر لكي تنشّط ملكة الخيال، وهذه الملَكة تقوم بوظيفة استحضاريّة ترتبط بالذاكرة»[4].

ولعلّنا نخلص من ذلك كلّه إلى تعريف **طيف الخيال** بأنّه **عالَمُ الخيال الخاصّ بعلاقة الإنسان العاشق بالمحبوبة، يثيره الفراق وبُعد اللقاء، وتهيّجه حرقةُ العشق والشوقُ للعناق، موطنه المنام أو حُلُم اليقظة، غايته تحقيق ما يتراشق في العمق الإنسانيّ من آمال ورغبات وطموحات ثكلها في الواقع، وما يرافق تلك الأماني من الشعور بلذّة الأنس، ودفءِ الحبّ، ومتعةِ الوصل، وجمالِ الحياة.** مع الوعي التام بأنّ ذاك العالَم الخياليّ الجميل سرعان ما يتبدّد جماله ويتلاشى؛ لأنّه لذّة واهيّة، ومتعة زائفة، ووصال زائل بزوال طيف المحبوبة، بيد أنّه محاولة يقوم بها المأساويّ ليبحث عن عالَم تعويضيّ في منجزات الخيال، ينجز من خلاله ما فشل في تحقيقه واقعيًّا، ويحاول محاربة سلطة القبح المحيطة به، ويبحث عن سلوان أو عزاء يعينه

[1] – محمّد، د.سامي جاسم: طيف الخيال في الشعر الجاهلي بواعثه وتجليّاته، مجلّة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة، مج20، ع7، 2013، ص: 158.

[2] – الحسين، د.علي: طيف الخيال، تح: محمّد سيّد كيلاني، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1955، ص: 14–15.

[3] – يُنظر: الطيف والخيال في الشعر العربيّ القديم، ص: 47–50.

[4] – عبد الحميد، د.شاكر: الخيال (من الكهف إلى الواقع الافتراضي)، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع360، 2009، ص: 40–41، بتصرّف.

على الصمود في وجه الزمن المأسويّ والواقع العذابيّ، لينقذ الروحَ من قيد الألم ويبعث فيها جذوةَ الأمل، ذلك أنّ الروح عندما تشعر بأنّ الحياة مفرطة في الواقعيّة، أو متطرّفة في الرثاثة إلى الحدّ الذي لا يُطاق، مالم تخضع للتعديل، فإنّ الخيال يتحرّك لإنقاذ الروح من هذا الشعور بالحصر الخانق[1].

وبناء على ما سبق فإنّ طيف الخيال يمكن أن يقضّ مضجع العاشق فجأةً فيأتيه في المنام، وفي الوقت ذاته يمكن أن يكون حُلُمًا يأمل تحقيقه ولو بالخيال، أو قد يكون طيف الخيال محفزًا لاستذكار ذكريات في زمن ماضٍ وجميل. وفي كل الأحوال لم يكن طيف الخيال في شعر الشاعرَين يخرج عن تلك الألوان، الأمر الذي دعا إلى دراسة الظاهرة بلونَين، الأول منهما هو طيف الخيال المتمنّى وقوعه، والثاني هو طيف الخيال المستحضر.

- **طيف الخيال المتمنّى وقوعه/ المتوقّع:**

هو عالَم من الرؤى والآمال يراود الشاعر ليلًا ونهارًا، يأمل من خلاله تحقيق ما عَجِز عنه في الواقع، من لقاء الأحبّة وعناقهم، فيستمتع بما يحلُم ويأنس بمَن يرى، ويبني عالَمه العاطفيّ مع مَن فقَد، وهنا، يغدو طيف الخيال كاليخضور الذي يهب الحياة لكلّ روح أماتها الفَقْد والفراق، وأضناها الشوق والبعاد.

ولمّا عَجِزَتِ الذّات الشاعرة عن مواجهة فاجع الفقْد ومأساة الفراق، لجأت إلى استنطاق طاقة الخيال المبدعة التي أسهمت في رفد الروح بنسغ الأمل والتفاؤل، من خلال بناء عالَم شعريّ لها بديل عن عالَم الواقع المقتّر في وصل الأحبّة وتعويض عن المُرتجى المؤمّل في لقائهم، وغِلَالة لمَا تكابده من شعور القهر والحرمان والبعد والاغتراب، ذلك أنّ البحتري العاشق كان دائم التجوال والترحال، هائمًا على وجهه في البلاد، يبحث عمّا يسدّ رمق طموحه الماديّ، يعاني من شوق جارف إلى حبيبته

[1] – يُنظر، اليوسف، د.يوسف سامي: الخيال والحريّة، ط2، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ص: 56.

"علوة" التي كانت مستقرة في حلب، فكان طيف خيالها تعويضًا عن لقائها في دنيا الواقع، يقول البحتري[1]:

أَخَيَـــالَ "عَلْـــوَةَ" كَيْـــفَ زُرْتَ وعِنْـــدَنا أَرَقٌ يُشَـــرِّدُ بالخَيَـــالِ الزَّائِـــرِ!؟
طَيْـــفٌ أَلَـــمَّ بنـــا ونَحْـــنُ بِمَهْمَـــه قَفْـــرٍ يَشُـــقُّ علـــى المُلِـــمِّ الخَـــاطِرِ
أَفْضَـــى إلـــى شُـــعْثٍ تُطِيـــرُ كَـــرَاهُم رَوْحَـــاتُ قُـــودٍ كالقِسِـــيِّ ضَـــوَامِرِ
حتّـــى إذا نَزَعُـــوا الـــدُّجى وتَسَـــرْبَلُوا مـــن فَضْـــلِ هَلْهَلَـــةِ الصَّـــبَاحِ الغـــائِرِ
ورَمَـــوا إلـــى شُـــعَبِ الرِّحَـــالِ بـــأَعْيُنٍ يَكْسِـــرْنَ مـــن نَظَـــرِ النُّعَـــاسِ الفـــاتِرِ
أَهْـــوَى فَأَسْـــعَفَ بالتَّحِيَّـــةِ خُلْسَـــة والشَّـــمْسُ تَلْمَـــعُ فـــي جَنَـــاحِ الطَّـــائِرِ
سِـــرْنا، وأنـــتِ مُقِيمَـــةٌ، ولرُبَّمَـــا كَـــانَ المُقِـــيمُ عَلاقَـــةً للسَّـــائِر

رسم البحتري لوحة مأسويّة عن إحدى رحلاته في ليل مدلّهم، ومفازة بعيدة يَضِلُّ بها الخاطرُ، ويتيه الفكر، يسري بقوم شُعْث امتطوا صهوات مطايا تبدو ضلوعها لهزالها وضمورها كالقسيّ، وقد أخذ الإعياء منهم كلّ مأخذ، لكنّهم متذرِّعون بالجَلَد، وأرقُ عيونهم يُعينهم على مواصلة طريقهم، وفي ظلّ تلك المعاناة جاءَ طيف المحبوبة كشؤبوبِ غيث الرحمة، وبلسم النعمة، ليلقي التحيّة خِلْسَة على قلب مفؤود مَكدود[2]. فالخيال، هنا، مشغول مع الركب الساري في الصحراء، يتبع سيره في رحلة قاسيّة في ليلٍ مظلمٍ، لكنّه لم يمنع الطيف من القدوم، وكأنّ الطيف قد شعر بمعاناة الشاعر الحبيب فجاء، فجأةً، من دون استدعاء منه، ومن غير **أن يستظلّ بمظلّة الحُلُم، جاء ليلقي التحيّة ويبعث الأمل باللقاء**، ويستبدل بوحشة الليل وظلمته أُنسَ الحبّ ودفئه، خلافًا لطيف ابن زيدون الذي ما فتئ يتوسّل إليه أن يأتي، ولكن من دون جدوى؛ فالجفاء الذي منع النوم من القدوم، في الوقت نفسه، منع الطيف من

[1] – البحتريّ، ديوانه، تح: حسن كامل الصيرفيّ، دار المعارف، القاهرة، 1016/2–1017، المهمه: المفازة البعيدة، يشق على الملمّ الخاطر: يقولون: خطر البعير يخطر إذا مشى فضرب بذنبه يمينًا وشمالًا، الشعث: جمع الأشعث وهو المتلبّد الشَّعر الأغبر، كناية عن طول الرحلة، القُود: جمع أقود وهو من الإبل ما طال ظهره وعنقه، الغائر: الشديد الحر، الثوب الهلهل والهلهال: الرقيق النسج.

[2] – يُنظر: مرعشلي، د.نديم: البحتريّ، ط2، دار طلاس، دمشق، 1987، ص: 185.

زيارته، ومن طبيعة العاشق أن يكون حريصًا على زيارة الطيف، لأنّ «ما يعجز عنه زمن اليقظة، يحقّقه زمن الحُلُم»[1]، وكأنّ ابن زيدون يعقد الصلة بين النوم والوصل؛ لأنّ الطيف يزوره في الحُلُم وهو نائم، ولا مكان له في عالم اليقظة وفق رؤيته، فالنوم ملتقى الأطياف ومجمع الأرواح، يقول[2]:

ينهى جفاؤُكِ عن زيارَتي الكَرَى ... كَيْلا يزورَ خيالُكِ المُعْتَادُ
لا تَقْطَعِي صِلَةَ الخَيَالِ تَجَنُّبًا، ... إذ فيهِ مِنْ عَوَزِ الوِصَالِ سِدَادُ
ما ضَرَّ أنَّكِ بالسَّلامِ ضَنِينَةٌ، ... أيَّامَ طَيْفُكِ، بالعِنَاقِ، جَوَادُ
هَلَّا حَمَلْتِ السُّقْمَ عَنْ جِسْمٍ لَهُ، ... فِي كِلَّةٍ زُرَّتْ عَلَيْكِ فُؤَادُ
أوْ عُدْتِ مِنْ سَقَمِ الهَوى؛ إنّ الهَوى ... مِمَّا يُطِيلُ ضَنَى الفَتَى فيُعَادُ

يتوجّه ابن زيدون إلى محبوبته التي ما فتئت تضنّ عليه بالوصال، وترميه بالهجر ليال طوال، ينهاها عن حرمانه من زيارة طيفها له، فهو جواد بالعناق، يبرّد نيران الشوق، ويستلّ اللوعة والأسى من قلب مكلوم بفقْد الحبيب، ويشفي النفس المعذّبة ممّا تعانيه من سقم الفراق، وألم البُعاد؛ وقد استدعى الشاعر الطيف لأنّ محبوبته يتّسم حضورها بالبخل حتى إنّها تضنّ بالسّلام، في حين أنّ غيابها له سمة السخّاء، بما يجود به طيفها من عناقٍ فيه العزاء له، والسلوى ممّا يكابده من وحشة غياب المحبوبة، كما أنّ لجوء الشاعر إلى عالَم الطيف، هنا، في ظلّ معاناته الاغتراب ومكابدته الأشواق، والإلحاح بوجوده، وإن كان باليقظة، دليلٌ بيّن على **إعادة بناء الشاعر لذاته الممزّقة بين ألم الاغتراب ونار الفراق**؛ إذ يعيد الطيف للذّات الممزّقة وحدة الشعور بعد التشتّت والانفصال عن الأحبّة[3].

---

[1] – الصائغ، د.عبد الإله: الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، دار عصمى للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ص: 276.

[2] – ابن زيدون، ديوانه ورسائله، تح: علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص: 449–450.

[3] – يُنظر: ملحم، د.إبراهيم أحمد: جماليّات الأنا في الخطاب الشّعريّ، (دراسة في شعر بشّار بن برد)، دار الكندي للنشر والتوزيع، 2004، ص: 131.

ولمّا كانت فكرة الطيف تنبثق من الخيال فإنّ البحتريّ قد طوّعها لأداء وظيفة فنيّة استوعبت الألم النفسيّ العميق الذي رافق الشاعر في كلّ محطّات حياته اليوميّة والمأسويّة[1]، ولعلّ **فراق المحبوبة** كان إحدى تلك المحطات التي ألهبت عالم الطيف في خياله، وغدَت محرّكًا لاصطناعه؛ ففيه ينقاد الشاعر إلى «التخيّل المتراوح بين التعلّل بالماضي الجميل والضيق بالحاضر المنطوي على الهجر والحرمان»[2]، ويفرح لقدوم الليل الذي يجلب له المتعة ويتمنّى أن يطول لكي تستمرّ متعته بالخيال؛ متعة وصل طيف المحبوبة له رغم إصرارها على هجره في الواقع، ولكن، هيهات؛ فتباشير الصباح تُؤذن بالفراق، وتنذر بعذاب اليقظة، الأمر الذي يجعل الوجدان الشعوريّ يزداد معاناة وأسًى، والتعبير الشعريّ يستحيل إلى مناجاة واستغاثة، يقول[3]:

أَقَامَتْ على الهِجْرانِ مَا إنْ تَجُوزُهُ، وخالَفَها بالوَصْلِ طَيْفٌ لَهَا يَسْرِي
فَكَمْ في الدُّجى مِنْ فَرْحَةٍ بِلِقائِهَا ومِن تَرْحَةٍ بالبَيْنِ منها لَدَى الفَجْرِ!
إذا اللَّيْلُ أَعْطَانا مِنَ الوَصْلِ بُلْغَةً ثَنَتْنَا تَبَاشِيرُ النَّهَارِ إلى الهَجْرِ
ولَمْ أَنْسَ إسعَافَ الكَرى بِدُنُوِّها وزَوْرَتِها بعدَ الهُدُوِّ وما تَدْرِي

وإنّ ما يهوّن على البحتريّ المشتاق جوى الفراق وألمه، هو طيف الخيال؛ إذ ركن الشاعر إلى هذا الخيال الجميل الذي اصطنعه بنفسه، لينقذ روحه من مأساة الهجر والفراق، بل إنّه قد عبّر من خلاله عمّا عجز عن تحقيقه في اليقظة، وخاصّة في مرحلة الشيب؛ إذ حلّ الطيف محلّ الحبيب الذي يدير ظهر المِجَنّ للمشيب، يقول[4]:

---

[1] – ينظر، عبد ربه، كامل: طيف الخيال في شعر البحتريّ، مجلّة القادسيّة، جامعة القادسيّة، العراق، مج3، ع 2، 1998، ص: 66–67.

[2] – هلال، د.ريم: حركة النقد العربي الحديث في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص: 155.

[3] – البحتريّ، ديوانه، 1004/2، وكذلك انظر: 860/2، 2000/3، 2078/4.

[4] – المصدر السابق، 848/2–849، سوًى: منصف وسط بين دار قيس وبين دار سعد، بطن مر: من نواحي مكّة.

ومـــا أنـــسَ لا أنـــسَ عَهْـــدَ الشَّـــبَا ب، و"علـــوة" إذ عيَّرتْنـــي الكِبَـــرْ

....

أَلَـــمْ تَـــرَ لِلْبَـــرْقِ كيـــفَ انْبـــرى؟ وطيـــفِ البخِيلَـــةِ كيـــفَ احْتَضَـــرْ؟

خَيَـــالٌ أَلَـــمَّ لهـــا مـــن "سِـــوَى" ونحـــنُ هُجُـــودٌ علـــى "بَطْـــنِ مَـــرّ"

لقد استطاع البحتريّ تطويع طيف الخيال ليستوعب مجمل تجاربه الشّعريّة، فهو من «أكثر النّاس إبداعًا في الخيال، حتّى صار لاشتهاره مثلًا يقال له: خيال البحتريّ»[1]. وإذا كان الفراق (فراق المحبوبة، فراق الشباب) هو الباعث الأبرز لاصطناع طيف الخيال عند البحتريّ، فإنّ ابن زيدون كان كثيرًا ما يلوذ بالخيال أو بالوهم أو بالأماني[2] ليحقّق الرغبة الشهويّة التي عجز عن تحقيقها في عالَم اليقظة، فيغدو الخيال محاولة لتطويع المحبوبة لرغبات الشاعر، لا سيما القمينة منها، والمكبوتة التي تتسلّل عبر الخيال متجاوزة الزمان والمكان، ومتحررة من المواضعات الاجتماعيّة التي قد تقف حائلًا أمام إشباع رغباته[3]، يقول متمنيًّا وصل المحبوبة بعد أن شطّت به الديّار[4]:

أمّـــا مُنـــى نفْسِـــي فأَنْـــتِ جَمِيعُهَـــا يـــا لَيْتَنِـــي أَصْـــبَحْتُ بَعْـــضَ مُنَـــاكِ!!

يَـــدْنُو بِوَصْـــلِكِ حِـــينَ شَـــطَّ مَـــزَارُهُ وهْـــمٌ أكَـــادُ بـــهِ أُقَبِّـــلُ فَـــاكِ

ولَـــئِنْ تَجَنَّبْـــتُ الرَّشَـــادَ بِغَـــدْرَةٍ لَـمْ يَهْـوِ بِـي، فِـي الغَـيِّ، غَيْـرُ هَـوَاكِ

فمن شأن الخيال أن يروّض المستحيلات لتصبح من المُمْكِنات، ويجترح المعجزات، فـ«الخيال فعل وإنْ لم يلتحم بالواقع، وبواسطته يحقّق الشعور أقصى درجة

---

[1]– الحصريّ القيروانيّ، أبو إسحاق: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمّد البجاوي، ط1، دار إحياء الكتب العربيّة، 1953، 2/ 701.

[2] – تجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلمتي (الوهم والأمنيّة) ظهرتا في شعر ابن زيدون بمعنى مرادف للخيال عند البحتريّ.

[3] – يُنظر: الصائغ، د.عبد الإله: الخطاب الإبداعيّ الجاهليّ والصورة الفنّيّة، المركز الثقافيّ العربيّ، ط1، الدار البيضاء، 1997، ص: 33.

[4] – ابن زيدون، ديوانه، ص: 345– 346.

من الإرادة والحريّة»[1]، وابن زيدون استظلّ بمظلة الوهم الجميل ليحقّق أقصى ما يريده من محبوبته، يحقّقه بسلام وأمان من دون رقباء، أو وشاة، يبدّدون جماله، وذلك في مكان صنعه من نسيج خياله، وإنّ غياب المحبوبة قد منح الشاعر خيالًا رحبًا، قرّب البعيد وروّض الممتنع؛ فهي على بعد الديّار دانيّة منه حتى أوشك أنْ يقبّل ثغرها، وهذا الحضور في الذهن يخفف وطأة الفراق، وألم الغياب، يقول[2]:

ألا ليــتَ شِــعْرِي هَــلْ أُصَــادِفُ خَلــوةً لَـديكِ، فأشـكو بعـضَ مـا أنـا واجِـدُ؟
رَعَــى الله يَومًــا فيــه أشــكُو صَــبَابَتِي، وأجفــانُ عَيْنــي، بالــدّموعِ، شَــواهِدُ

هي أمنيات في الخيال الرحب تجسّد المشهد المأساويّ لعدم تحقّقها بالفعل، بيد أنّها تملأ عالَمه بسعادة الوصل فيحسّ بالأمان والاطمئنان، وتبعث دفء الحبّ في روحه الثكلى، لكنّ الشاعر يعي تمامًا أنّ ما ركن إليه لم يكن سوى أوهام وأحلام اخترعها فكره، ونمّاها خياله، وكأنّه يسير على مبدأ "شللر" حين قال: «يجب أنْ تكون لك الجرأة على أن تخدع نفسك وتحلُم»[3].

وهنا لا بدّ من القول بأنّ طيف الخيال كان محاولة لإسعاد الذات وخروجها من حلكة المأساة وظلمها، وهي محاولة غالب فيها الوهم الحقيقة، والخيال الواقع، بيد أنّ كلا الشاعرين استطاع في يقظة من يقظات الذهن، إدراك ماهيّة الوهم، وإزالة قناعه عن بصريهما، لتسطع بصيرتاهما، وتملأ الخيبة ذاتيهما، والمأساة روحيهما.

- **طيف الخيال المُستحضَر واقعه/ الواقع:**

هو طيف خيالٍ استرجاعيٍّ يقوم الشاعر باستدعائه إراديًّا؛ ليسترجعَ فيه جلّ الذكريّات الجميلة التي قضاها مع محبوبته في زمنٍ غابرٍ، منقذًا به ذاته من حاضرها المأسويّ. ذلك أنّ «التذكّر يقتضي أن تكون للتجربة الحاضرة علاقةٌ بأخرى

[1] – نصر، د.عاطف جوده: الخيال مفهوماته ووظائفه، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1984، ص: 78.

[2] – ابن زيدون، ديوانه، ص: 172.

[3] – جويو، جان ماري: مسائل فلسفة الفن المعاصرة، تر: سامي الدروبيّ، ط2، دار اليقظة العربيّة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1965، ص: 124.

ماضية، ويتيح هذا التصوّر الربط بين الخيال والذاكرة، ويضع الإدراك الحسيّ أو العيان شرطًا لهما، لأنّ الصور متخيّلة أو متذكّرة مشتقّة من المحسوس»[1]، بمعنى أنّ الخيال «يقوم على استحضار حقائق جزئيّة سبق إدراكها ثمّ مزْجها وتلوينها وإبرازها في صور منسّقة متّسمة في جملتها بالطلاوة والابتكار»[2]، وبناء عليه يكون الخيال ممزوجًا بما هو معاش/الذاكرة؛ فتشكّل **الذكرى** الباعث الأبرز لزيارة الطيف هنا، ولا يتبدّى في خيال الشاعر من دون مؤثّر أو محفزٍّ يثيره؛ كرؤية الأماكن التي جمعت العاشق بمَن يحبّ، بما تحمله من ذكريّات سعيدة أو حزينة، يقول البحتري[3]:

سَـــلَامُ اللهِ كـــلَّ صـــبَاحِ يَـــوْمٍ — عليـك ومـن يُبَلِّـغُ لـي سـلامي؟
لقـد غـادَرْتِ فـي جَسَـدِي سـقَامًا — بمَـا فـي مُقْلَتَيْـكِ مـن السَّـقَامِ
وذَكَّرَنِيـكِ حُسْـنُ الـوَرْدِ لَمَّـا — أتَـى، ولَذيـذُ مَشْـرُوبِ المُـدَامِ
لَـئِنْ قَـلَّ التَّواصُـلُ أو تَمَـادَى — بِنَـا الهِجْـرَانُ عامًـا بَعْـدَ عَـامِ
فكـم مـن نَظْـرةٍ لـي مـن قَرِيـبٍ — إليـكِ، وزَوْرَةٍ لَـكَ فـي المَنَـامِ!
أأَتّخِـذُ العِـراقَ هَـوًى ودَارًا — ومَـن أَهْـوَاهُ فـي أَرْضِ "الشـآمِ"؟

شكّل الزمن الحاضر في رؤية الشاعر صورة التعاسة والفراق العذابيّ، وبالمقابل، كان الزمن الماضي هو صورة السعادة للروح واللقاء الجميل مع المحبوبة، وبين ذينك الزمنَين **تتوسّط الذكرى كجسرٍ يوصل الحاضر المأسويّ بالماضي الجميل**، لتحقيق لذّة الإشباع الخيالي بعالَم الأحلام. ذلك أنّ الشاعر العاشق يتذكّر محبوبته مع كل جميل في الحياة، ويرسل لها التحايا مع كل نسيم للصباح؛ فبُعد الديار لم يجعله يملّ ذكرها، بل كانت قرينة الخيال يعيش معها ذكريّاته الجميلة، مستخرجًا سعادة الذّات من الماضيّ، ومنقذًا حاضره من خلال اعتماده على تلك الذكرى.

---

[1] – نصر، د.عاطف جوده: الخيال مفهوماته ووظائفه، ص: 69.

[2] –عبد العظيم، د.علي: ابن زيدون (حياته، أدبه)، دار الرسالة للطباعة والنشر والإعلام، 1955، ص: 20.

[3] – البحتريّ، ديوانه، 3/1932–1933.

كانت روح البحتريّ تئنّ كلّما ذكر شوقه لمحبوبته، وحنّ قلبه لرؤيتها، رغم أنّ فراقها في معظم الأوقات كان نتيجة اغترابه الطوعيّ، فكيف الحال بمَن أودعه الظلم نازحًا ومشرّدا بالبلاد، مغتربًا عن موطنه اغترابًا قهريًّا، ومفارقًا لمحبوبته فراقًا عذابيًّا، يقول[1]:

إنّـــي ذكَرْتُـــكِ بـــالزّهراءَ مُشـــتاقًا والأُفْـقُ طَلْـقٌ ووجْـه الأرضِ قـد راقـا

....

كُـــلُّ يَهـــيجُ لَنَـــا ذِكْـــرَى تَشَـــوّقِنَا إليكِ، لـم يَعْدُ عنْها الصَّدْرُ أنْ ضَاقَا

لا سَـــكَّنَ الله قَلْبًـــا عَـــقّ ذِكْـــرَكُمُ فلـــمْ يَطِـــرْ بجَنَـــاحِ الشَّـــوقِ خَفّاقَـــا

لوْ شاء حَمْلي نسيمُ الصُّبْحِ، حينَ سرَى، وافَـــاكُمُ بفتًـــى أضْـــنَاهُ مـــا لاقَـــى

يَـــوْمٌ، كأيَّـــامِ لَـــذَّاتٍ لنَـــا انْصَـــرَمَتْ، بِتْنَـــا لهَـــا، حِـــينَ نَـــامَ الـــدَّهْرُ، سُـــرَّاقَا

لـو كـانَ وفّـى المُنَـى، فـي جَمعِنـا بكـمُ، لكـــانَ مـــن أكْـــرَمِ الأيَّـــامِ أَخْلاقَـــا

تجلّى الطيف في شعر ابن زيدون بوصفه **ذكرى** لزمنٍ جميلٍ قد أدبرَ، وهناءة أيّامٍ قد ولّت، فتقصّد تحديد المكان الجميل (الزهراء) المقرون بفعل (ذكرتك) ليستردّ زمنًا ضائعًا ما يزال حيًّا وجميلًا في الذاكرة والقلب[2]، ويوضّح أنّ التحرّك الزمنيّ للقصيدة برمتّها يسير نحو رسم صورة الماضيّ الجميل بكلّ تفصيلاته الزمانيّة والمكانيّة أيضًا، فـ (كلّ يهيج) ذكرى المحبوبة، ويحشد الذكريّات الجميلة الماضية التي عاشها معها، ويوقدها في الصدر الذي ضاق عن استيعابها، ويصوّر حدّة لوعة الفراق وقسوته، ويعبّر عن الشوق والحنين لتلك الأيّام، في صور شعريّة مليئة بالانفعالات الوجدانيّة والمعاناة النفسيّة التي جسدتها الذكرى «فالصورة الشعريّة عمل فنّي يشير

[1] – ابن زيدون، ديوانه، 139–140.

[2]– يُنظر: أحمد، د.مرشد: مبادئ التحليل الأدبيّ (الاستكشاف الجماليّ لعالم النصّ الشعريّ)، ط3، الأصيل للطباعة، حلب، 2014، ص: 82.

إلى عظمة الخيال المبدع الذي يبعثها من الذاكرة إلى العاطفة السائدة التي تلوّنها»[1]، وبذلك تغدو الصورة قادرة على أن «تمنح شكلًا معيّنًا لحالات الفكر بل لكلّ ما يحسّ به الشاعر من تداخل بين الفكرة والعاطفة»[2]؛ فجعل الشاعر العاشق من محبوبته رمزًا للطاقّة الكونيّة، والاتصال بها هو اتصال بجمال الكون والحياة؛ ذلك أنّ الحبّ عنده رمز للخلق والتجدّد، وانبعاث الأمل في الحياة بعد اليأس[3]، والبِرّ في الحبّ يكمن في ذكرٍ سرمديٍّ لمَن نحبُّ، ومن ذلك قوله[4]:

أذكَرْتِنـي سَـالِفَ العَـيْشِ، الـذِي طابَـا، يَـا لَيْـتَ غَائِـبَ ذاكَ العَهْـدِ قَـدْ آبَـا
إذْ نَحْـنُ فـي رَوْضَـةٍ، لِلْوَصْـلِ، نَعَّمَهـا، مِـنَ السُّـرُورِ، غَمَـامٌ، فَوْقَهـا صَـابَا
إنِّـي لأعجَـبُ مِـن شَـوْقٍ يُطَـاوِلُنِي، فَكُلّمَـا قِيـلَ فيـه: قَـدْ قَضَـى، ثَابَـا

يجسّد النصّ رفض الشاعر لواقع الفراق المأسويّ باستخراج الذّات من العهد الماضي الذي غاب في الحقيقة، لكنّه موجود بداخلها؛ لإنقاذ الحاضر، معتمدًا على الذكرى لأيّامه الجميلة مع المحبوبة؛ فجلب كلّ ما يلزم لإقامة الحياة، من روضة خضراء، وسرور وصْل، وجمال غمام هاطل فوقها.. وإنّ ذاك الوصف للروضة لم يكن وصفًا يوحي بجمال مكان جغرافيّ له أبعاده الماديّة، بل إنّه رؤيةٌ أخذ المكان فيها بعدًا حلُميًّا تمنّت الذّات العودة إلى عهده.

وكثيرًا ما يلجأ البحتريّ إلى استدعاء الطيف ليتجاوز به ظلم الواقع؛ واقع الفراق، فيقول[5]:

---

[1] – جيدة، د.عبد الحميد: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، ط1، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، 1980، ص: 364.

[2] – أبو أحمد، د.حامد: نقد الحداثة، ط1، مؤسسة اليمامة الصحفيّة، 1994، ص: 142.

[3] – يُنظر: أدونيس، الثابت والمتحوّل بحث في الإبداع والاتّباع عند العرب، ج1، ط7، دار السّاقيّ، 1994، ص: 300.

[4] – ابن زيدون، ديوانه، ص: 123.

[5] – البحتريّ، ديوانه، 1/58–59، ظمياء: اسم امرأة.

تَـذكَّرَ مَحزُونًـا؛ وأنَّـى لـه الـذِّكْرى! وفاضَـتْ بِغُـزْرِ الـدَّمعِ مُقْلَتُـهُ العَبْـرى

فـؤادٌ هـو الحَـرَّانُ مِـن لاعِـجِ الجَـوَى إلى كَبِدٍ جَمٍّ تَباريحُها حَرَّى فلا

كَـرًى حـالَ سَـكْبُ الـدَّمعِ دُونَ ختامِـهِ دمعـةٌ تَرْقَـى، ولا مُقْلَـةٌ تَكْـرَى كسَكْرَانَ

وكنـتُ، وكانَـتْ، والشَّـبابُ عُلَالـةٌ، مـن خَمْـرِ الصَّـبَابةِ أو سَـكْرَى

....

سَرَى الطَّيْفُ من "ظَمْيَاءَ" وهْنًا فَمَرْحَبًا وأهلًا بمَسْرى طَيْفِ "ظَمْيَاءَ" مِن مَسْرَى

شكّلت **الذكرى** قطب الرحى في استدعاء الشاعر لطيف المحبوبة، وهو في حلكة الفراق، ذكرى جمال أيّامه مع محبوبته، وأُنس الوصْل بينهما في زمن الشباب؛ إذ ألهبت نار الشوق الفؤاد فاستجابت لها العين بالدموع الغزار، وكان الطيف كالغمامة الهاطلة على أرضٍ مقفرةٍ أضناها القحط والجفاف، فأسعد قلب العاشق الذي ترجم فرحه بقدومه بإلقاء التحيّة عليه، وكأنّه شخص ماثلٌ أمامه.

ولعلّ مجيء الطيف خفّف وطأة الفراق عند البحتريّ خلافًا لابن زيدون الذي لم ينعم بزيارته، مع أنّه كان يعاني من حلكتي الفراق والسجن، يقول[1]:

[1] – ابن زيدون، ديوانه، ص: 250– 253، ذماء اللّيل: القلّة الباقية من اللّيل، البرح: المتعب، تألّفه: امتزج به، السواد الجون: السواد الخالص، يقظان: ساهر، الغِرَر، واحدتها غرّة: غفلة.

مـا جَـالَ بَعْـدَكِ لَحْظِـي فـي سَـنَا القَمَـرِ ... إلّا ذَكَرْتُـكِ ذِكْـرَ العَـيْنِ بـالأَثَرِ
ولا اسـتَطَلْتُ ذَمـاءَ اللَّيـلِ مِـن أَسَـفٍ ... إلّا علـى لَيلَـةٍ سَـرَّتْ مَـعَ القِصَـرِ
فِـي نَشْـوَةٍ مِـن سِـنَاتِ الوَصْـلِ مُوهِمَـةٍ ... أن لا مَسَـافَةً بـينَ الـوَهْنِ والسَّـحَرِ
نَاهِيـكِ مِـن سَـهَرٍ بَـرْحٍ تَأَلَّفَـهُ ... شَوْقٌ إلى مَا انْقَضَى مِنْ ذَلِكَ السَّمَرِ
فَليـتَ ذاكَ السَّـوادَ الجَـونَ مُتَّصِـلٌ ... لـو اسْـتَعَارَ سَـوادَ القَلْـبِ والبَصَـرِ
....
يقْظَـانُ لَـمْ يكْتَحِـلْ غَمْضًـا مُرَاقَبَـةً ... لِـرَابِطِ الجَـأْشِ مِقْـدَامٍ عَلـى الغِـرَرِ
لا لَهـوُ أيَّامِـهِ الخَـالي بمُرْتَجِـعٍ ... ولا نَعِـيمُ لَيَالِيـهِ بِمُنْتَظَـرِ
إذ لا التَّحِيَّـةُ إيمـاءٌ مُخالَسَـةً ... ولا الزِّيَـارةُ إلمَـامٌ علـى خَطَـرِ
مُنًـى كَـأنْ لَـمْ يَكُـنْ إلّا تَـذَكُّرُها ... إنَّ الغَـرَامَ لَمُعتَـادٌ مَـعَ الـذِّكَرِ

أُلقِي ابن زيدون في السجن؛ ذاك المكان المخيف بما يوحيه من صور القهر والعذاب والعقاب، وما له من «أثر كبير في الضغط النّفسيّ على عموم مَن دخله، وأكثرهم تأثيرًا الشعراء»[1]، لمَا يتّمتعون به من رهافةٍ في الحسّ، وعمقٍ في الشعور؛ فهو مكان مقيّد يشعر فيه الشاعر بأنّه يعيش وجودًا ناقصًا، وأنّه محروم من ممارسة الحياة كما يجب، ومقيّد الروح قبل الجسد، والوجود قائم على أساس الحريّة، وممارسة الفعل الدّال على وجود الذّات، لذا ليس له إلّا عالَمه النفسانيّ يُعينه في معالجة تلك الحال التي باتت فيها الذّات مقيّدة، ذلك أنّ «النظرة الداخليّة التي يعتمد عليها الشاعر، فيها مزيج معقّد مخلوط من مناظر مرئيّة وغير مرئيّة، شعوريّة ولا شعوريّة، فيها خطوط وألوان وأصوات من كلّ ما تقذف به العاطفة، ومن كلّ ما ينبع في النفس من فكر وحُلُمٍ وخيال»[2]، لذا حاول الشاعر أنْ يهرب من حدود ذلك المكان بالذكرى؛ فالذكرى بؤرة الحقيقة التي انطلق منها الشاعر ليعلّل الذّات المعذّبة، مُشعلًا جذوتها تسلّل القمر إلى غرفته بالسجن، ليكون معادلًا موضوعيًّا لصورة الحبيبة في ذاته داخل ظلمة السجن، وبرؤيته تمّ استرجاع ذكريّات ماضيه الجميل، وهناءة أيّامه مع

[1] – الحلقي، د.عبد العزيز: أدباء السجون، دار الكتاب العربي، د.ت، ص: 11.

[2] – حسن، د.عبد الحميد: الأصول الفنّيّة للأدب، مكتبة الأنجلو المصريّة، 1949، ص: 169.

المحبوبة، وسعادة لياليه في الوصْل، متمنيًّا زيارة طيفها؛ ليبدّد ظلام السجن، ويبعث فيه الحياة التي فُقِدت بين جدرانه، وإنْ كانت تلك الزيارةُ بخيلة الزمن، فهي محاولة تعويضيّة للتحرّر من قسوة السجن وسلطته، و«تكون الذاكرة مطيّة الشاعر لتعويض لذّة مفقودة في الحاضر، وهي بناء على ذلك، حبل نجاة الشاعر ما دامت اللّذة نفسها مطلبًا رئيسيًّا في الحياة»[1]. كما يتمنّى أن يحظى باختلاس تحيّة منها ولو إيماءة تروي ظمأَ القلب المكدود. وبتلك الأمنيات والذكريّات غدا التحرّك نحو الماضي له دوره في مواساة الذّات المقيّدة، وفي تنفيس كُربتها وفكّ قيودها لتكون حرّة في عالَم الخيال والذكريّات والآمال.

ولمّا كان الطَّيف «يعلّل المشتاق المغرم، ويمسك رمَقَ المعنّى المسقَم، ويكون الاستمتاع به، والانتفاع منه، وهو زور باطل، كالانتفاع لو كان حقًّا يقينًا»[2]، فقد كان لجوء الشاعرين إليه تعويضًا عن المُتع التي شحّت بها غربتاهما المكانيّة، وضنّت بها المواضعات الاجتماعيّة في بيئتيهما من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ ذلك قد حمل كلا الشاعرين على الاكتفاء بالطيف في حالة البعد ليكون دليلًا على إخلاص العاشقَين لبعضهما بعضًا، ووفائهما للذكريّات الجميلة بينهما، يقول البحتريّ[3]:

تَقَضَّـــى الصِّـــبَا إلَّا خَيَـــالًا يَعُـــودُني ... بـــهِ ذو دَلالٍ أَحْـــوَرُ الطَّـــرْفِ فـــاتِرُهْ
يَجُـوبُ سَـوادَ اللَّيْـلِ مِـن عنـد مُرْهَـفٍ ... ضَـعِيفِ قَـوَامِ الخَصْـرِ سُـودٍ غَـدَائِرُهْ
فيُـــذْكِرُنِي العَهْـــدَ القـــديمَ وليلَـــةً ... لَـدَى سَـمُرَاتِ الجِـزْعِ إذْ نَـامَ سَـامِرُهْ
وعَهْـــدًا أَبَيْنَـــا فيـــه إلَّا تَبَايُنًـــا ... فـــلا أنـــا ناسِـــيْهِ ولا هُـــوَ ذاكِـــرُهْ

عانت الذات المغتربة من غياب اللحظات الجميلة التي كانت تحياها في الصِّبا، بيد أنّ الخيال أصرّ على إعادتها إلى الذاكرة مع رؤية كل جميل في حاضرها، فجاء الفعل (فيذكرني) قناة واصلة بين الزمنين (الماضي/ الحاضر)،

[1] – القلفاط، د.منجي: الإنسان والمكان في الشعر العربي القديم، الدار التونسيّة للكتاب، 2016، ص: 55.

[2] – الحسين، علي: الملقّب بالشريف المرتضى: طيف الخيال، ص: 14.

[3] – البحتريّ، ديوانه، 877/2، الغدائر: جمع الغديرة وهو المضفورة من شعر النساء.

مستدعيًّا الذكريّات الجميلة إلى الذهن، باعثًا النشوة في قلب العاشق، حاثًّا إيّاه على الوفاء للمحبوبة، وبقاء حبّها سرمديًّا لا يُنسى، وطيف خيالها لا يغادره، مهما بعُدت الديّار وشط المزار؛ ذلك أنّ طيف علوة هو طيف جميل يُستدعى، لا يأتي من تلقائه، يبثّ لواعج الغرام، ويُؤثر الاستماع إلى الكلام، وهو طيف أثيرٌ، لأنّه طيف حبيب أوّل، يلوب حول الشاعر كالفراشة، وحين يبتعد الطيف أو يختفي يصحو الشاعر على واقع كئيبٍ يخفّف من كآبته انشغاله" بعلوات" أخريّات، لكنّ القلب يظلّ يخفق باتّجاه علوة الحلبيّة[1]، وما التّحرّك نحو الماضي من خلال الذكرى إلّا إثبات بقاء الحبّ وديمومته على الرغم من البعد الزمانيّ والمكانيّ، وكذا الحال عند ابن زيدون الذي يختم قصيدته النونيّة بقوله[2]:

نَأْسـى عَلَيْـكِ إذَا حُثَّـتْ مُشَعْشَـعةً	**فِينَـا الشَّـمُولُ، وغَنَّانَـا مُغَنِّينَـا**
لا أكْـؤُسُ الـرَّاحِ تُبْـدِي مِـن شَـمَائِلِنَا	**سِـيمَا ارْتِيَـاحٍ، ولا الأَوْتَـارُ تُلْهِينَـا**
دُومِـي عَلَـى العَهْـدِ، مَـا دُمْنَـا، مُحَافِظَـةً	**فَـالحُرُّ مَـن دانَ إنصَـافًا، كمَـا دِينَـا**
فمَـا استَعَضْـنَا خَلِـيْلًا مِنْـكِ يَحْبِسُـنَا	**ولا اسْـتَفَدْنَا حَبِيبًـا عَنْـكِ يَثْنِيْنَـا**
ولَـوْ صَـبَا نحْوَنَـا مِـن عُلـوِ مَطْلَعِـهِ	**بَـدْرُ الـدُّجَى لَـمْ يَكُـنْ حاشَـاكِ يُصبِيْنا**
أوْلِـي وَفَـاءً، وَإنْ لَـمْ تَبْـذُلِي صِـلَةً؛	**فَـالطَّيْفُ يُقْنِعُنَـا، والـذِّكْرُ يَكْفِيْنَـا**

إنّ الأسى الذي يحدثنا عنه ابن زيدون هو بُعده عن الثالوث المقدّس؛ وهو(الوطن، ولّادة، الجاه)، وما الشوق إلى أيّامه مع ولّادة إلّا حنين لتلك الأيّام الجميلة في ربوع الوطن الأمّ (قرطبة)، وإلى الحظوة الكريمة عند الأمراء والوزراء، فـ«الشوق حالة شعوريّة وثيقة الصلة بالذكرى، فالذكرى تولّد، فيما تولّد، الشوق الذي يعني نزوعًا جارفًا إلى مكان أو إنسان غائب، إنّه مزيج من شعورَين متناقضَين، ألم الفراق، وحلاوة

[1] – يُنظر: شرف الدين، د.خليل: البحتريّ بين البركة والإيوان، مكتبة الهلال، بيروت، 2000، ص: 152.

[2] – ابن زيدون، ديوانه، ص: 147–148، نأسى: نحزن، حثّت: حث الخمرة أي: شربها، مشعشعة: ممزوجة بالماء، الشمول: الخمر، دان: اتخذ له دينا وهو هنا الوفاء، خليلًا: حبيبًا، يحبسنا: يمنعنا، يثنينا: يغيّرنا، صبا: مال، يصبينا: يستهوينا.

التذكّر»[1]، لذا نراه في حالة خنوع يطلب الوفاء من الجميع حتّى من نفسه، ويختم نونيّتَه بخاتمة «منطقيّة فيها نوع من الهدوء وكثير من الاستسلام، وفيها تأكيد دائم على الوفاء يطلبه ممّن أحبّ كما يطلبه من نفسه، بل لعلّه لا يستطيع التخلّي عن هذا الوفاء في الحبّ؛ لأنّه سبب من أسباب بقائه. فليقنع بالقليل إذن، وليودّعها وفي نفسه ذلّةٌ وانكسار، وفي الجوّ الذي خَلَقه ارتجاف وحسرةٌ ورنين»[2]، ويتبدّى ذاك الوفاء جليًّا في صرخة الذّات العاشقة الصادقة في حبّها؛ بأنّ لا بديل يسليها عن حبّها الضائع و إنْ كان "بدر الدجى"؛ ففي هذه اللحظة تخلّى الشاعر عن كبريائه، وأطلق العنان لقلبه المكدود وروحه الثكلى، ومن ثمّ أعلن عن اقتناعه بالطيف زادًا له في غربته، واكتفائه بذكريّاته الجميلة لتكون مؤونة الروح في حلكة الفراق، فقد «أصبح مقيّدًا بالشعور الداخليّ الذي تعمّق في وجدانه، وغيّر من سلوكه ونظرته للكون وللمفاهيم الغالبة»[3].

الخاتمة والنتائج:

- خلُص البحث إلى أنّ ثمّة تشابهًا في الظروف التي عاشها كلا الشاعرين اجتماعيًّا وسياسيًّا في وطنيهما، من جهة الاغتراب عن الوطن، وفراق الأحبّة.
- حاول كلا الشاعرَين تجاوز واقع الفراق المأسويّ بإيجاد المعادل الموضوعيّ الذي يخفّف وطأة الاغتراب من خلال استدعاء طيف المحبوبة في عالم الخيال، ومناجاتها، أو بالعودة إلى ذكريات الماضي الجميل واستذكار أيامهما في ربوع الوطن.
- لاحظ البحث أنّ ثمّة اختلافًا في توظيف الشاعرَين لفكرة الطيف في شعريهما؛ فقد استطاع البحتريّ تطويعها بسلاسة لتشمل مجمل تجاربه الشعريّة، في حين أنّ ابن زيدون كان يُعاني في استدعاء الطيف، ويطوّع خياله ليحقّق رغبات الأنا الشهويّة.

المصادر والمراجع

[1] – القلفاظ، منجي: الإنسان والزمان في الشعر العربي القديم، ص: 57.

[2] – الركابي، د.جودت: في الأدب الأندلسيّ، ط2، دار المعارف بمصر، 1966، ص: 214.

[3] – الربّاعي، د.عبد القادر: جماليّات المعنى الشعري، ط1، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، 1999، ص: 18.

1. **أبـو أحمـد**، حامـد، 1994- **نقـد الحداثـة**، مؤسسـة اليمامـة الصـحفيّة، الطبعـة الأولى، 184ص.

2. **أحمد** مرشد، 2014- **مبادئ التحليل الأدبيّ** (الاستكشاف الجماليّ لعالم النصّ الشعريّ)، الأصيل للطباعة، حلب، الطبعة الثالثة، 222ص.

3. **أدونـيس**، 1994، **الثابـت والمتحـوّل بحـث فـي الإبـداع والاتّبـاع عنـد العـرب**، ج1، دار السّاقيّ، الطبعة السابعة، 407ص.

4. البحتريّ، 1964، **الديوان، تـح: حسن كامل الصيرفي**، دار المعارف، القاهرة، 3173ص.

5. جويـو، جـان مـاري، 1965، **مسـائل فلسـفة الفـن المعاصـرة**، تـر: سـامي الـدروبيّ، دار اليقظـة العربيّـة للتـأليف والترجمـة والنشـر، بيـروت، الطبعـة الثانيـة، 227ص.

6. جيدة، عبد الحميد، 1980، **الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر**، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 398ص.

7. حسن، عبد الحميد، 1949، **الأصول الفنّيّة للأدب**، مكتبة الأنجلو المصريّة، 203ص.

8. الحسـين، علـي، 1955، **طيـف الخيـال**، تـح: محمّـد سيّد كيلانـي، مطبعـة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، 123ص.

9. الحلقي، عبد العزيز، **أدباء السجون**، دار الكتاب العربي، د.ت، 471ص.

10. الربّـاعي، عبـد القـادر، 1999، **جماليّـات المعنـى الشـعري**، المؤسّسـة العربيّـة للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 302ص.

11. الركابي، جودت، 1966، **فـي الأدب الأندلسـيّ**، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، 384ص.

12. **الزبيدي**، السيّد محمّد مرتضـى، 1986، **تـاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيـق: عبـد الفتّـاح الحلـو، راجعـه: مصـطفى حجـازي، مطبعـة حكومـة الكويـت، 534/23ص.

13. **ابن زيدون**، 1980، **ديوانه ورسائله**، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 809ص.

14. **شرف الدين**، خليل، 2000، البحتريّ **بين البركة والإيوان**، مكتبة الهلال، بيروت، 215ص.

15. **الصائغ**، عبد الإله:

- **الخطاب الإبداعيّ الجاهليّ والصورة الفنّيّة**، 1997، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 336ص.
- **الزمن عند الشعراء قبل الإسلام**، دار عصمى للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، 334ص.

16. **عبد الحميد**، شاكر، 2009، **الخيال (من الكهف إلى الواقع الافتراضي)**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع360، 519ص.

17. **عبد ربه**، كامل، 1998، **طيف الخيال في شعر البحتريّ**، مجلّة القادسيّة، جامعة القادسيّة، العراق، مج3، ع 2، 66–78ص.

18. **عبد العظيم**، علي، 1955، **ابن زيدون (حياته، أدبه)**، دار الرسالة للطباعة والنشر والإعلام، 578ص.

19. **عز الدّين**، حسن البنا، **1988**، **الطيف والخيال في الشّعر العربيّ القديم**، دار النديم للنشر والتوزيع والصحافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 221ص.

20. **ابن فارس**، 1979، أبو الحسين، **معجم مقاييس اللّغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،512/2ص.

21. **القلفاط**، منجي، 2016، **الإنسان والمكان في الشعر العربي القديم**، الدار التونسيّة للكتاب، 266.

22. **القيروانيّ**، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصريّ، 1953، **زهر الآداب وثمر الألباب**، شرحه: علي محمّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربيّة، الطبعة الأولى، 1188ص.

23. **محمّد**، سامي جاسم، 2013، **طيف الخيال في الشعر الجاهلي بواعثه وتجليّاته**، مجلّة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة، مج20، ع7، 155-181ص.

24. **مرعشلي**، نديم، 1987، **البحتريّ**، دار طلاس، دمشق، الطبعة الثانية، 290ص.

25. **ملحم**، إبراهيم أحمد، 2004، **جماليّات الأنا في الخطاب الشّعريّ**، (دراسة في شعر بشّار بن برد)، دار الكندي للنشر والتوزيع، 215ص.

26. **ابن منظور**، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت 366/9ص،742/11ص..

27. **نصر**، عاطف جوده، 1984، **الخيال مفهوماته ووظائفه**، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 307ص.

28. **هلال**، ريم، 1999، **حركة النقد العربي الحديث في الشّعر الجاهليّ**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 293ص.

29. **اليوسف**، يوسف سامي، 2003،**الخيال والحريّة**، مساهمة في نظريّة الأدب، دار كنعان للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الثانية، 176ص.